بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه الدعاة المعاصرين

إلى الأسس والمبادئ التي تعين على وحدة المسلمين

تأليف

عبد المنعم مصطفى حليمة

أبو بصير

منبر التوحيد والجهاد

* * *

http://www.tawhed.ws

http://www.almaqdese.ws

http://www.alsunnah.info

http://www.abu-qatada.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.

{يا أيها النّاسُ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً}.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً}.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار.

اللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.

فقد بدا واضحاً أن فُرقة المسلمين في جماعات وأحزابٍ مُتنافرةٍ مُتناحرةٍ داءٌ ينبغي له العلاج، وأن اعتصامهم - بحبل الله - جميعاً، وفي جماعةٍ واحدةٍ أمرٌ لابد منه، وهو مطلبٌ شرعيٌّ وواقعيٌّ لا خلاف عليه، وضرورة ملحة تفرضها حالة التشرذم والضعف والهوان الذي تعيشه الأمة، الأمة التي هانت على أمم الكفر والنفاق، فتكالبوا عليها من كلّ حدبٍ وصوبٍ ينتهكون حرماتها!

قال تعالى: **{واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}**[1].

وقال تعالى: **{ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}**[2].

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله يرضى لكم أن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجماعة وإياكم والفُرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُحبوحة الجنّة فليلزمِ الجماعة)[4].

ومن دواعي تحقيق هذا المطلب الشرعي الضروري، ارتباطه الوثيق - كسبب وشرطٍ لازمٍ - بالمطلب الأهم والأعظم؛ وهو وجوب العمل من أجل استئناف حياة إسلامية على جميع الأصعدة والمستويات، وقيام خلافة راشدة على منهاج النبوة.

فهو واجب لذاته لأن الله تعالى يحب لنا الوحدة والاعتصام والاجتماع، وواجب لغيره؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وأهم هذه الأسس والمبادئ التي - يجب الاجتماع عليها - تعين على وحدة المسلمين واجتماعهم في جماعة واحدة مُتماسكة، مُتراصة، مُتكافلة، نُجملها في النقاط التالية:

---

(1) سورة آل عمران : 103 .
(2) سورة الأنفال : 46 .
(3) رواه مسلم .
(4) صحيح سنن الترمذي : 1758 .

أولاً
الاتفاق على الحكَم والمرجعية التي ترد إليها النزاعات والخلافات

إذ يستحيل الاجتماع والاتفاق وفض النزاعات فيما بين الأطراف المختلفة المتنازعة، ثم لكلٍّ طرفٍ حكَمه وموازينه ومرجعيته الخاصة به، المغايرة لمرجعيات وموازين الأطراف الأخرى، لذا كان لابد للمسلمين - العاملين المخلصين - أن يتفقوا - أولاً - على الحكَم والمرجعية التي تُرد إليها جميع النزاعات والخلافات التي كانت سبباً في اختلافهم وتفرقهم.

ويُسلّموا لما تُمليه عليهم من قرارات وأحكام من دون أدنى اعتراض أو تعقيب.

والحكَم في الإسلام الذي يجب الاتفاق عليه في كلّ أمر هو "الكتاب والسنّة على ضوء فَهْم سلف الأمة"، وبخاصة منها القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية والفضل.

<u>والأدلة على هذا "الحكَم" كثيرة منها:</u>

قوله تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى الله والرسول إنْ كنتم تُؤمنون بالله واليوم الآخر}**[1].

والرد إلى الله والرسول يكون بالرد إلى الكتاب والسنة..

ومن دلالات الآية كذلك أن في الكتاب والسنّة جواباً وحلاً لكلّ ما يمكن أن يتنازع فيه المسلمون من أمور الدنيا والدين، فحاشى لله عز وجل أن يردنا إلى "حكَم" ومرجع نحتكم إليه ثم لا نجد فيه حلاً شافياً ووافياً لما قد تنازعنا فيه..

---

[1] سورة النساء : 59 .

ومنها؛ أنّ رد المنازعات إلى الله والرسول من لوازم الإيمان وشرط لصحته، ينتفي الإيمان بانتفائه..

قال ابن القيم رحمه الله: "جعل هذا الرد من مُوجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء الآخر" اهـ[2].

وفي قوله تعالى: **{فلا وربك لا يُؤمنون حتى يُحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلِّموا تسليماً}**[3].

قال رحمه الله: "أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله عدم إيمان الخلق حتى يُحكموا رسوله في كلّ ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع والمعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يُثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج؛ وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كلّ الانشراح، وتنفسح له كلّ الانفساح، وتقبله كلّ القبول، ولم يُثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض" اهـ[4].

وكذلك قوله تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}**[5].

ورفع الصوت فوق صوت النبي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم يكون برفع الصوت على سنته صلى الله عليه وسلم ، وبتقديم الأقوال والأفهام على أقواله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم: "فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه، أليس هذا أولى أن يكون مُحبطاً لأعمالهم" اهـ[6].

---

(2) اعلام الموقعين : 1/50 .
(3) سورة النساء : 65 .
(4) التبيان في أحكام القرآن : 270 .
(5) سورة الحجرات : 4 .
(6) اعلام الموقعين : 1/51 .

قلت: ولا يُحبط العمل إلا الكفر..

وكون الالتزام ينبغي أن يكون بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنّة، فهو لأوجه:

منها؛ أن نصوص الكتاب والسنّة ألزمتنا بفهم السلف الصالح لنصوص الوحي وبخاصة منهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

قال تعالى: **{ومن يُشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوله ما تولى ونُصله جهنم وساءت مصيراً}**[1].

وأولى النّاس بصفة المؤمنين الواردة في هذه الآية همُ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومن كان على سيرتهم وسنتهم ممن جاؤوا بعدهم.

وفي الآية دلالة، وهي أن مُشاققة الصحابة واتباع غير سبيلهم ومنهاجهم هي مُشاققة للرسول صلى الله عليه وسلم تُوجب على صاحبها اللعنة والعذاب.

قال ابن تيمية: "فإنهما مُتلازمان فكلّ من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكلّ من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى" اهـ[2].

وكذلك قوله تعالى: **{قُل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}**[3]

وفي قوله: **{أنا ومن اتبعني}**، قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم وكنز الإيمان، وجُند الرحمن.

وقال ابن مسعود: "من كان مُستناً فليستن بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً

---

(1) سورة النساء : 115 .
(2) مجموع الفتاوى : 7/38 .
(3) سورة يوسف : 108

وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". اهـ[4].

وفي السنّة فقد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لتفترقنَّ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقة، واحدة في الجنّة واثنتان وسبعون في النّار" قيل: يا رسول الله مَن هم؟ قال: "الجماعة)[5].

وفي رواية عند الترمذي، من حديث عبد الله بن عمرو: (وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين ملّة كلّهم في النّار إلا ملّة واحدة"، قال: من هي يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي)[6].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أُوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب)[7].

وقال صلى الله عليه وسلم: (سترون من بعدي اختلافاً شديداً فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإنّ كلّ بدعة ضلالة)[8].

وقال صلى الله عليه وسلم: (خير النّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النّار، الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض) [1].

قال ابن مسعود: "إنّ الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب

(4) تفسير البغوي : 2/453 .
(5) صحيح سنن ابن ماجة : 3226 .
(6) صحيح سنن الترمذي : 2129 .
(7) رواه ابن ماجة، والترمذي، صحيح سنن الترمذي : 1758 .
(8) صحيح سنن ابن ماجة : 40 .
(1) متفق عليه .

العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يُقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ"[2].

وقال ابن عباس: "لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع النبي صلى الله عليه وسلم - خير من عمل أحدكم أربعين سنّة"[3].

وغيرها كثير من النصوص والآثار الصحيحة التي تُلزم الأمة بالاقتداء بفهم الصحابة، وتتباع هديهم، ونهجهم، وسُنتهم.

ومنها أن عدم الالتزام بفهم الصحابة لنصوص الوحي، يستلزم منه تعدد الأفهام لنصوص الوحي، حيث لكلّ فرد من البشر ممكن أن يكون له فهمه الخاص به، وهذا أمر من لوازم التسليم به التفرق، والتنازع، والاختلاف، وحلول البدع وذهاب السنّة.

وما هذا التفرق، والتشرذم، والاختلاف الذي تعيشه الجماعات الإسلامية المعاصرة إلا بسبب تجاوزهم لهذا القيد الهام، واستقلال كلّ جماعة أو حزب أو زعيم بفهمه الخاص لنصوص الكتاب والسنة!

فكانت النتيجة الطبيعية لذلك هذه المئات من الفِرق، والأحزاب، والجماعات المتنافرة المتناحرة المتباغضة.. وما أكلفه من ثمن!!

ومنها أن الصحابة عاصروا نزول الوحي، وعرفوا أسباب نزوله، كما كانوا الأقرب والألصق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، يتلقون منه العلم مباشرة غضّاً ندياً.. ومن كان كذلك لاشك أنهم يكونون الأفقه والأعلم بمراد الشارع ممن فاتتهم هذه الخاصية.

ومنها أن الصحابة والتابعين لهم باحسان قد رضي الله عنهم، وأثنى عليهم خيراً في كتابه العزيز، كما في قوله تعالى: **{والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله**

---

[2] أخرجه الطيالسي وأحمد وغيرهما بسند حسن، قال الشيخ ناصر في تخريج "الطحاوية": حسن موقوف .
[3] أخرجه أحمد وغيره، وصححه الشيخ ناصر في تخريج الطحاوية .

عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم}[4].

والله تعالى إذ يرضى عن أحدٍ فهو يرضى عنه لسلامة دينه وفهمه واعتقاده لا لشيءٍ آخر، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنه يدل على أن الصحابة والتابعين لهم باحسان كانوا على درجةٍ عاليةٍ - لا يرقى إليها أحد بعدهم - من الالتزام والفهم الصحيحين لدين الله تعالى، مما أهلهم لهذا المقام العلي، وهو رضى الله تعالى عليهم.

وهذه خاصية لا يمكن الجزم بها لأحدٍ بعدهم؛ لأنها قضية غيبية لا يمكن البت بها إلابدليل صريح صحيح.

خلاصة ما تقدم نقول:

إن أي محاولة لتوحيد جهود الجماعات الإسلامية المعاصرة تتغافل هذا القيد الهام، وهو "الاحتكام إلى الكتاب والسنّة على ضوء فهم السلف الصالح"، فهي محاولة فاشلة لا جدوى منها، وهي أقرب ما تكون إلى العبث، وجهود أصحابها لا ثمار لها، وإن بدت في الظاهر بعض الثمار فهي كبيت العنكبوت سُرعان ما يتهاوى وينهار لأدنى هزة أو هبة ريح، ليعود إلى حالة أرثى مما كان عليه قبل البناء، لأنها محاولة لجمع الأضداد والمتغايرات على أنها شيء واحد متكاتفٍ متماسك، وأنَّى؟!

ثم إنّ الإسلام فرَّق وجمع؛ فرق بين الحق وأهله من جهة وبين الباطل وأهله من جهة، وبين الإيمان وأهله والكفر وأشياعه، وبين السنّة وأهلها والبدعة وأصحابها.

ومن جهة فقد جمع أهل الحق على الحق، وأهل التوحيد على التوحيد، وأهل السنّة والاتباع على السنّة لا الابتداع.. فمن ينشد تجميع ما فرَّقه الإسلام، وتفريق ما جمعه الإسلام - تحت أي ذريعة كانت - فهو وعمله إلى البوار والنار.

---

[4] سورة التوبة : 100 .

ثانياً
التجرد من أي انطلاق غير شرعي

بحيث يكون النص الشرعي - قال الله، قال الرسول - أحب إلينا من أهوائنا، وآرائنا، وأحزابنا، وأشياخنا، وعشائرنا، ومن أنفسنا ومصالحنا الذاتية، فلا يمنعنا شيء من ذلك عن مُتابعة الحق ونُصرته أين كان، مهما ترتب على ذلك من تبعات..

وذلك لا يتحقق إلا بتجريد المتابعة لله ولرسوله من أي رابطة أو وشيجة تحيل بين المرء ومُتابعة الحق والنزول عنده.

ومتى كان الأمر على خلاف ذلك، فإن الاختلاف والتفرق متحققان وسيبقى شعار توحيد المسلمين في جماعةٍ واحدةٍ شعاراً عزيز المنال، ولا واقع له.

وهذه نقطة هامة جداً - قد غفل عنها كثير من النّاس - لا يمكن تجاوزها في أي حال من الأحوال إلا إذا رضينا لأنفسنا صفة غير صفة الإسلام والإيمان.

قال تعالى: **{فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذابٌ أليم}**[1].

قال الإمام أحمد رحمه الله: الفتنة هي الشرك، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الاية: **{فلا وربّك لا يُؤمنون حتى يُحكموك فيما شجر بينهم}.**

---

[1] سورة النور : 63 .

وقيل له: إنَّ قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الاسناد وصحته ويدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره! قال الله: **{فليحذرِ الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذابٌ أليم}**، وتدري ما الفتنة؟ الكفر، قال الله تعالى: **{والفتنة أكبر من القتل}**، فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي؟! اهـ[2].

قلت: فما يكون القول إذاً فيمن يدَعون النص الشرعي الثابت عندهم استرضاءً لأحزابهم، أو لأشياخهم، أو لعشيرتهم، أو لحُكامهم، أو لأوطانهم وغير ذلك من الروابط والوشائج الأرضية التي لا اعتبار لها في ميزان الحق؟! لاشك أنهم أولى بالفتنة والوعيد الوارد في الآية الكريمة.

وفي الحديث فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان" منها "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لايُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والنّاس أجمعين)[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لأنت يا رسول أحب إليَّ من كلّ شيء إلا من نفسي، فقال: (لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك) فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إليَّ من نفسي، فقال: (الآن يا عمر)[4].

ومن علامات صدق هذا الحب ودلائله تجريد المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم والتخلي عن مُتابعة كلّ ما سواه، أما أن يُتبع النبي صلى الله عليه وسلم في جانب، ويُتبع غيره في جوانب أخرى، فدعوة الحب عند من يفعل ذلك غير صادقة وهو أقرب ما يكون إلى النّفاق، والعياذ بالله.

---

(2) عن الصارم المسلول لابن تيمية : 56 .
(3) متفق عليه .
(4) رواه البخاري .

مصداق ذلك قوله تعالى: **{قل إن كنتم تُحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله}**[1] ، فعلى قدر الاتباع يكون الحب صادقاً، فإذا ازداد الاتباع والانقياد ازداد الاتباع، وإذا قلّ وضعف الاتباع والانقياد نقص وضعف الحب، وانعدام الاتباع مُطلقاً يستلزم منه انعدام الحب والإيمان مطلقاً.. ولا اعتبار مع ذلك لمزاعم اللسان، فإنه لسان نفاق وزندقة فاحذره.

قال ابن كثير في التفسير: هذه الآية حاكمة على كلّ من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله" اهـ.

وفي صحيح سنن ابن ماجة، قال عُبادة بن الصامت لمعاوية: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن رأيك!! لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك عليّ فيها إمرة.

وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قال لرجل: يا ابن أخي إذا حدثتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فلا تضرب له الأمثال[2].

وكان ابن عباس يقول: يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر!

قلت: فما بال أقوام نقول لهم: قال الله، قال رسول الله.. فيقولون لنا: ولكن قال الحزب.. قال الأشياخ.. ارتأت الجماعة.. مصلحة الجماعة تقتضي خلاف ذلك.. وغير ذلك من الأقوال التي تنم عن الاعتراض والتعقيب على شرع الله!!

إلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(1) سورة آل عمران : 31 .
(2) صحيح ابن ماجة : 20 .

ثالثاً
وضوح الرؤية لواقع الأمة، وتحديد الأولويات في العمل الإسلامي

مما يُساعد على تحقيق وحدة المسلمين في جماعة واحدة، وضوح الرؤية لواقع الأمة، والاجتماع على رأي واحد حول حقيقة مجتمعاتنا المعاصرة، والصفة الشرعية التي تستحقها، وكذلك تحديد الموقف من الأنظمة التي تحكمها، إذ التباين والتناقض في المواقف والآراء تجاه هذه المسائل الهامة الحساسة من شأنه أن يفضي إلى التنازع والتفرق والاختلاف، حيث يستحيل الاجتماع على عمل إسلامي ينشد التغيير واستئناف حياة إسلامية على جميع أصعدة الحياة، ثم فريق من المجتمعين ينظر لهذه المجتمعات على أنها مجتمعات جاهلية مرتدة، وحُكم ديارها حكم دار الحرب والكفر، يجب الخروج على حُكامها لكفرهم وارتدادهم عن الدين، بينما الفريق الآخر له نظرته المغايرة تماماً؛ حيث ينظر لهذه المجتمعات على أنها مجتمعات إسلامية تجري عليها أحكام ديار الإسلام، والأنظمة التي تعلوها هي أنظمة إسلامية، وحُكامها مسلمون يجب لهم السمع والطاعة من قِبل النّاس..

فهذه قضايا شائكة - كثر الجدال حولها - لابد من رؤية موحدة صحيحة تجاهها، وحسمها مع الأطراف قبل دعوتهم للاجتماع، وعلى ضوء ما تقدم في النقطة الأولى من بحثنا هذا.

ومرة ثانية أؤكد أن هذه القضايا هامة ومستعجلة لا تحتمل الإرجاء أو التأخير، كما لا تحتمل أن يعذر بعضنا

بعضاً فيما نختلف فيه، فهذا ممكن في الفـروع، وهـذه مـن الأصول التي يجب الاجتماع عليها.

وكم من مجتمع ودار توجّه فيه سهام المسـلمين علـى بعضهم البعض بسبب اختلافهم حول هـذه المسـائل، بينمـا كان الأصل أن تجتمع سهامهم وتُوّجه إلى صدر الطاغوت.

أما عن أولويات العمل الإسلامي الـتي يجـب الاجتمـاع عليها، فأجملها في نقطتين:ـ

الأولى، العمل على إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد وحده، والكفر بكلّ مألوه مُطاع سوى اللـه سبحانه وتعالى.

وهذه مهمة لأجلها خلق اللـه الخلـق، وأرسـل الرسـل، وأنزل الكتب، وكانت الهمَّ الأكـبر والغايـة العظمـى للأنبيـاء والرسـل، وللعلمـاء العـاملين مـن بعـدهم عـبر التاريـخ الإنساني وإلى يـوم القيامـة، لا يصـرفهم عنهـا صـارف، ولا يشغلهم عنها شاغل مهما كانت الأسباب الداعية لذلك.

وهـي قضـية - لعظمهـا - لـم تكـن تقبـل عنـدهم المسـاومة، ولـم يرضـوا بـديلاً عنهـا شـيئاً آخـر، ولـم يكـن يتجاوزوها إلى أي شيءٍ مهمـا عظـم شـأنه قبـل أن يُعطـوا عليها إجابة صريحة من العباد وكلّ الطواغيت.

وكـانت لأجلهـا تُسـلُّ السـيوف، وعليهـا يُعقـد الـولاء والبراء، ويعلن الحرب والسـلم، وفـي سـبيلها تبـذل المهـج والأرواح، ويرخص كلّ غالٍ ونفيس.

إنهـا قضـية لابـد مـن أن تُحسـم - أولاً - وبوضـوح مـع الطواغيت، كلّ الطواغيت: من المعبـود بحـق فـي الوجـود هم أمٍ الله الواحد الأحد، الفرد الصمد؟

قـال تعـالى: **{ومـا خلقـتُ الجـنَّ والإنـس إلا ليعبدون}**[1].

وقال تعالى: **{وما أرسلنا من قبلك مـن رسـولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}**[2].

---

[1] سورة الذاريات : 56 .
[2] سورة الأنبياء : 25 .

وقال تعالى: **{فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}**[3].

وقال تعالى: **{ولقد بعثنا في كلّ أمةٍ رسولا أنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}**[4].

وفي الحديث، فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من وحّد الله تعالى، وكفر بما يُعبدُ من دونه، حُرِّم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل)[5].

مفهوم الحديث الذي دلّ عليه منطوق أدلة الشريعة، أنّ من وحّد الله تعالى لكنه لم يكفر بما يُعبد من دونه لا يُحرم ماله ودمه، ولا يكون من المسلمين المؤمنين.

والشاهد أن المسألة على أهميتها وخطورتها إلا أننا نجد كثيراً من الدعاة والوعاظ والحركات - رهبةً أو رغبةً - قد تجاوزوها، وانشغلوا عنها بالفروع، والرقائق، والفقهيات، والاقتصاديات وبما يأذن به الطواغيت فقط!

وصوروا للنّاس أن هذا الفُتات القليل الذي يُلقى إليهم من قِبل الطواغيت ويُسمح لهم بممارسته على أنه شيء عظيم، وفتحٌ ليس بعده فتح، وهو الإسلام الذي جاءت به الرسل، ولم نعد بحاجة إلى شيء غيره نُطالب به الآخرين!!

وهؤلاء - على ما لهم يوم القيامة جزاء كِتمانهم للعلم - أنَّى لجهودهم ودعواتهم أن تُثمر في نفوس النّاس والمجتمعات وقد تجاهلوا أصل الأصول؛ ألا وهو التوحيد؟!، وهم مثلهم مثل من يُريد غرس شجرة ممتدة الجذور، فيبدأ بغرس الغصون والفروع مُتجاهلاً الجذور والأصول التي من دونها لا ينبت شجر ولا ثمر.

ولعلّ ذلك يكون السبب الأكبر في نفور كثير من النّاس عن الدين، أو قُل: تمييع معاني الدين وتشويهها في نفوس كثير ممن يُقبلون عليه، وهؤلاء بإقبالهم المشوه هذا يكونون وبالاً على الدين بدلاً من أن يكونوا جُنداً من جنوده، يظهر ذلك في أقل صراع وتدافع بين الحق وأهله من جهة، والباطل وأهله من جهة أخرى، حيث سرعان ما

---

(3) البقرة : 256 .
(4) سورة النحل : 36 .
(5) رواه مسلم .

يقفون إلى جانب الطاغوت في أي صراع يدور مع الإسلام وجنده، حتى أنك لتتساءل ما هذا الإسلام الذي يعتنقون؟!

ثم طبقة أخرى غير أولئك، ممن ينتسبون إلى العلم والفقه، نجدهم - رغبةً أو رهبةً - يُصوِّرون الحديث - مجرد الحديث - عن التوحيد الذي من أوكد لوازمه وشروطه الكفر بالطواغيت كلّ الطواغيت، هو فتنة يجب اجتنابه، واجتناب الدعاة إليه، بل ومحاربتهم على أنهم خوارج وأصحاب فتنة!!

ولهؤلاء نقول: قد وقعتم بالفتنة، وأنتم أولى بالفتنة من غيركم، وهل فاتكم - يا محاربي الفتنة - أنّ لا فتنة أعظم وأخطر وأشد على الأمة، والبلاد والعباد من فتنة الشرك، والرضى بالطواغيت التي تُعبد من دون الله ولو في جانب من جوانب العبادة..

صدق الله العظيم حيث قال: **{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله}**.

والدين هو الطاعة، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كلّه لله[1].

وحتى نُحيط بالمشكلة من جميع أوجهها لابد من إدراك معنى الطاغوت ومعرفة أنواعه، ومعنى العبادة وما يتفرع عنها، لنرى أين نحن من كلّ ذلك؟

قال ابن تيمية: "الطاغوت فعلوت من الطغيان، والطغيان مُجاوزة الحد؛ وهو الظلم والبغي، فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك: طاغوت، والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق - سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله أو مُطاعاً أمره المخالف لأمر الله - هو طاغوت؛ ولهذا سمى الله من تُحوكم إليه، من حاكم بغير كتاب الله طاغوت، وسمى الله فرعون وعاداً طغاة". اهـ[2].

وقال ابن القيم: "الطاغوت كلّ ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كلّ قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يُطيعونه فيما لا

---

(1) قاله ابن تيمية في الفتاوى : 28/544 .
(2) مجموع الفتاوى : 28/200-201 .

يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال النّاس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومُتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومُتابعته". اهـ[3].

ولابن تيمية كلامٌ جامعٌ شاملٌ في معنى العبادة، حيث قال: "العبادة هي اسم جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة". اهـ.[4].

وهذا يعني أنّ الركوع والسجود، والصوم والحج، والنذر والنسك، والحب والكره، والجهاد والتضحية، والخشية والتوكل، والدعاء والإنابة والرجاء، والطاعة والانقياد والاتباع والحكم والتحاكم.. وغيرها كلّ ذلك داخل في مسمى العبادة التي لو أعطيت - أو شيء مما يندرج تحت مسماها - لغير الله عز وجل حصل الشرك الأكبر وانتفى التوحيد والإيمان.

قال تعالى: **{قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له}**[5].

وبعد فإننا نتساءل:

مَنِ المعبود في زماننا وفي كثير من مجتمعاتنا، الله أمِ الطاغوت؟!

مَنِ المطاع لذاته، الله أمِ الطاغوت؟!

مَنِ الذي يُشرع للعباد، الله أمِ الطاغوت؟!

مَنِ الذي يُعقد عليه الولاء والبراء، الله أمِ الطاغوت؟!

مَنِ الذي يُحب ويُخشى لذاته، الله أمِ الطاغوت؟!

مِمَن يتلقى النّاس قيمهم وقوانينهم ودساتيرهم، مِنَ الله أم مِنَ الطاغوت؟!

---

(3) اعلام الموقعين : 1/50 .
(4) كتاب العبودية .
(5) سورة الأنعام : 162 .

إلى مَـن يتحـاكم النّـاس، وإلـى مـن يـردوا مُنازعـاتهم وخُصوماتهم، إلى الله أمِ إلى الطاغوت؟!

فإذا كان واقع الحال يقول: الطاغوت - وإن لم يعترف بـذلك كـثيرٌ مـن النّـاس - أدركنـا حجـم الهـوة بيـن النّـاس وحقيقة هذا الدين، وأدركنا بالتالي ثقل الأمانة الملقاة على عاتق العلماء والدعاة العاملين، وما يجب عليهم نحو أمتهـم ودينهم.

وعليه فإن "مشكلة هذا الـدين فـي الأرض اليـوم لهـي قيـام الطـواغيت الـتي تعتـدي علـى ألوهيـة اللـه وتغتصـب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحـة والمنـع فـي الأنفس والأموال والأولاد..

وهي هي المشكلة التي كـان يُواجهها القـرآن الكريـم بهـذا الحشـد مـن المقـررات والبيانـات، ويربطهـا بقضـية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميـزان الجاهلية أو الإسلام"[1].

وبالتالي لا نكون قد حايدنا الصواب لو بدأنا مع أقوامنـا كما بدأ الأنبياء والرسل مـع أقـوامهم يـدعونهم: أنِ اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت، لا نتجاوز هـذه الـدعوة إلـى سـواها حتى نلقى الله أو نرى إجابة صحيحة صـريحة، صـادقة مـن النّاس.

ثم حقيقة أخـرى لابـد مـن أن يدرسـها العـاملون لهـذا الدين، وبخاصة منهم الذين يتلمسون طُرقاً قصيرة ملتويـة يتوخـون مـن خلالهـا النصـر والتمكيـن؛ وهـي أنّ النصـر، والتمكين، والاسـتخلاف فـي الأرض، والأمـان والاطمئنـان، وغير ذلك من الخير لن يتحقق إلا بسلامة التوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، والكفر بكلّ مألوه معبود سواه أيّـاً كان شكله ونوعه وصفته.

قال تعالى: **{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملـوا الصالحات ليستخلفنّهم فـي الأرض كمـا اسـتخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعـد خـوفهم أمنـاً يعبـدونني لا يُشركون بي شيئاً}**[2].

---

[1] في ظلال القرآن : 3/1217 .
[2] سورة النور : 55 .

خلاصة ما تقدم نقول: إن قضية "مَن المعبود بحق في الوجود" هي قضية الدين كلّه، وهمُّ الدعاة المخلصين العاملين، يجب اجتماع الجهود على أساسها، ولا يمكن التفريط بها، أو تجاوزها إلى ما هو دونها - قبل حسمها مع الطواغيت كلّ الطواغيت وجميع من يُشايعهم وينصرهم ويعبدهم - مهما كانت الأسباب الداعية لذلك.

أما **النقطة الثانية** - في سلم الأولويات - التي يجب الاجتماع عليها، والقلق لأجلها تكمن في العمل من أجل قيام خلافة راشدة، واستئناف حياة إسلامية على منهاج النبوة.

وهذا أمر لا خلاف على وجوبه بين علماء الأمة قاطبة، لا يشذ عنهم إلا مرجف مغفل أو مغرض لا يريد أن تقوم للإسلام قائمة أو تعلو له كلمة.

قال النووي: أجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة.[3]

وقال الماوردي: عقد الإمامة لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع.[4]

وقال الهيثمي: اعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب، بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم.[5]

وقال القرطبي: ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة.[6]

ومن جهة فإن أهمية هذا الهدف تكمن في ارتباطه الوثيق - كسبب - بالهدف السابق وهو تعبيد العباد لربهم سبحانه وتعالى وحده، حيث أن الله تعالى ليزع بالسلطان المسلم ما لا يزعه بالقرآن، بل وإن كثيراً من الأحكام والواجبات الشرعية لا يمكن القيام بها إلا في ظل خلافة راشدة يعلوها خليفة راشد يذود عن الدين، ويسوس الدنيا بالدين.

---

(3) شرح صحيح مسلم : 12/205 .
(4) الأحكام السلطانية : 56 .
(5) الصواعق المحرقة : 17 .
(6) الجامع لأحكام القرآن : 1/264 .

قال ابن تيمية: "يجب أن يُعـرف أن ولايـة أمـر النّـاس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها". اهـ.

وقال الإمام أحمد: "الفتنة إذا لم يكن إمام يقـوم بـأمر المسلمين". اهـ.

لذا عملت قـوى الكفـر والنفـاق - ولا تـزال - للحيلولة بين المسلمين وخلافتهم، وشغلتهم عنها بافتعـال شـعارات وخلافـات بيـن صـفوف المسـلمين مـا أنـزل اللـه بهـا مـن سلطان.

وقد وُجد - وللأسف من أبناء جلـدتنا وممـن يتقمصـون ثـوب العلـم والعلمـاء - مـن اسـتجاب لهـم، وأنصـت إلـى شبهاتهم ومكائـدهم، فجنـدوهم لمحاربـة الخلافـة والـدعاة إليها وهم يدرون أو لا يدرون..

حتى وصلنا إلى مآل أصبح العمل من أجل قيـام خلافـة راشـدة تُهمـة خطيـرة تُوجب علـى صـاحبها - عنـد أنظمـة الكفر والطغيان - السجن لسنين طويلة، إذا لم يكن القتـل وقطع العنق!

ونحن نقول لجميع الكفار ومن تبعهـم مـن المنـافقين: لن يطول فألكم، ولن تبقى عروشـكم الـتي بنيتموهـا علـى جمـاجم وأشـلاء شـعوبكم بـالقهر والحديـد، ومهمـا كـدتم وتـآمرتم ومكرتـم فـإن مكركـم إلـى بـوار، وإن الخلافـة الإسلامية - على منهاج النبوة - قادمة وكائنة بإذن الله.

فها هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يُبشرنا، ونحـن به مؤمنون مصدقون: (تكون النبوة فيكم مـا شـاء اللـه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكـون خلافـة علـى منهاج النبوة، فتكون ما شاء اللـه أن تكـون، ثـم يرفعهـا إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكـون مُلكـاً جبريـاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعهـا، **ثم تكون خلافـة علـى منهـاج النبـوة**، ثـم سـكت)[1]. ونحن على أبوابها إن شاء الله.

وقال صلى الله عليه وسـلم: (إنَّ اللـه زوى - أي جمـع وضـم - لـي الأرض، فرأيـت مشـارقها ومغاربهـا وإنَّ أمـتي

[1] رواه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة : 5 .

سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها)[2]. وهـذا لـم يكـن مـن قبـل، لكنه سيكون بإذن الله..

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليبلغنَّ هذا الأمـر مـا بلـغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبـر إلا أدخلـه اللـه هذا الدين، بعز عزيز أو بذُلِ ذليل، عزاً يُعزُّ اللهُ به الإسـلام، وذلاً يذل به الكفر)[3]. وهو كائن بإذن الله.

رابعاً
ترشيد النصح فيما بين المسلمين، ومراعاة ضوابط الاختلاف

إذ يستحيل اجتماع كلمة المسلمين، وتوحيـد صـفوفهم في وجوه الأعداء، ثـم هـم لأدنـى خلاف فقهـي - ومـا أكـثر المسـائل الفقهيـة المختلـف فيهـا - يُعلنـون الحـرب والمفاصلة، والولاء والـبراء، وتحصـل فيمـا بينهـم البغضـاء والمجافاة والمعاداة!

ومما يشتد له العجـب أننـا نجـد مـن المسـلمين ممـن يعملون في حقل الدعوة أو الـوعظ والإرشـاد، قـد يُـثيرون مشـاكل - لهـا نتائـج خطيـرة علـى وحـدة الصـف وصـفاء القلوب - لأدنـى خلاف أو خطـأ، يصـدر عـن مسـلم، بحجـة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عـن المنكـر، وأن السـاكت عن الحق شـيطان أخـرس، بينمـا نراهـم - رغبـةً أو رهبـةً - يلتزمون الصمت المطبق تجاه الكفر البواح، والمنكر الأكبر الظاهر، وبخاصة إن كـان مصـدره أئمـة وطـواغيت الكفـر، حيث لا منكر يُنكرونه، ولا معروف يأمرون به!

---

[2] رواه مسلم وغيره، السلسلة الصحيحة : 2 .
[3] رواه ابن حبان في صحيحيه وغيره، السلسلة الصحيحة : 3 .

يُقاتلون المسلمين على سنّة من السنن، بينما تراهم يُسالمون الطواغيت رغم تنحيتهم لشرع الله عن الحكم...

يُسيئون الظن بالمسلم العاصي ويحملون عليه جميع النصوص التي تأمر بالأخذ على الظاهر، وفي المقابل تراهم يُدافعون ويُوسعون دائرة التأويل والأعذار على طواغيت اجتمعت فيهم جميع نواقض الإيمان، ويحملون عليهم النصوص التي تستلزم مراعاة الباطن والقصد!!

تراهم على الطواغيت مرجئة رحماء، وعلى المسلمين والدعاة العاملين منهم خوارج أشداء، لا تفوتهم البدعة المؤثمة فهم لها بالمرصاد، بينما إذا مرت عليهم البدعة المكفرة فهم نِيام يشخرون لا حسيس لهم ولا صوت!!

ومن هذا القبيل تحالف بعض الفصائل أو الجماعات الإسلامية مع أحزاب علمانية كافرة، تُعادي الله ورسوله، وفي المقابل تراهم يستثقلون ويستصعبون الجلوس أو التفاهم مع مسلم مخالف لهم في مسألة أو وجهة نظر!!

وهؤلاء - جميعاً - نعيذهم أن يقعوا فيما وقع فيه الخوارج الأوائل، حيث وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم: (يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان).

وكذلك ملاحظة بعض النّاس - ممن ينتسبون إلى الدعوة والعمل الإسلامي - حيث يعقدون الولاء والبراء على أساس الإنتماء الحزبي أو المشيخي؛ فيُوالون من يُوالي الحزب أو الشيخ بغض النظر عن سلامة دينه وحُسن سلوكه، ويُعادون من يُعادي الحزب ولو كان من أتقى أهل الأرض!!

وهذا مما لا شك فيه أن مؤداه إلى مزيد من التفرق والتناحر والاختلاف، كما أنه مُغاير لقوله تعالى: **{أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}**[1]. وقوله: **{المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف}، {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}**[2].

---

[1] سورة المائدة : 54 .
[2] سورة التوبة : 67 - 71 .

قال ابن تيمية: من حالف شخصاً على أن يُوالي من والاه، ويُعادي من عاداه كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالى ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثل هؤلاء من عسكر المسلمين، بل هؤلاء من عسكر الشيطان. اهـ[3].

وثمة أمر بجدر تنبيه الإخوان عليه: وهو أنّ العدو الكافر يحرص دائماً على اشغال المسلمين بشبه ومسائل هامشية - عن أهدافهم العظمى - عديمة الفائدة، بل هي غالباً ما تفضي إلى البغضاء والتفرق والتنازع والاختلاف، وضعف الشوكة، وعلى مبدأ فرِق تسد.. حتى لا تكاد شبهة تموت وينتهي أثرها، إلا وتجدهمَ يتبعونها بشبهات أشد أثراً على اجتماع الصف ووحدة كلمة المسلمين..

فلا نكونن نحن طعماً سهلاً لهذه الشبهات، نُروج لها ونحييها بمعارك جدلية هامشية لا طائل منها، بعد أن تكون ميتة لا أحد يعلم بها.

ثم ليس من الشجاعة ولا من الحكمة والفقه أن نتناول فِتناً قديمة قد اندثرت ولا واقع لها في حياتنا، وقد كان لها رجالها الذين تصدوا لها، بينما نغض الطرف ونعمي العين - رغبةً أو رهبةً - عن فِتن معاصرة أهلكت البلاد والعباد، نحياها ونعيش آثارها، والأمة تصلى نارها صباح مساء!

والاختلاف أنواع، منه ما يمس الأصول والعقائد والتوحيد، وهذا نوع عليه يُعقد الولاء والبراء، وعلى أساسه تُحدد المواقف، ويرفع لواء الحرب، حيث لا يُرجى من السكوت عليه دفع ضرر أكبر، لأنه هو ذاته يعتبر الضرر الأكبر والظلم الأعظم الذي لا يعلوه ضرر وظلم، كما قال تعالى: **{إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم}** [لقمان: 13]. وقال: **{والفتنة أشد من القتل}** [البقرة: 191].

ومنه ما يمس الفروع دون الأصول، وأصحاب هذا النوع من الاختلاف على الغالب يكون عندهم ما يستوجب موالاتهم من وجه، ومجافاتهم من وجه آخر، فيُعاملون على أساس ما عندهم من خير أو شر، واختلافهم مع الحق يُعالج بالنصح وبالحكمة والموعظة الحسنة، وبشيءٍ من الرفق وبخاصة إن كان المخالف عنده مظنة دليل مرجوح أو أنه يقلد عالماً مُعتبراً، وشاهدنا أن هذا النوع من الاختلاف لا

[3] مجموع الفتاوى : 28/20 .

يجوز أن يُشهر على أساسه السيف أو يؤدي إلى المجافاة المطلقة وقطع جميع حبال الود، وإنما الأمور بقدر..

ومنه ما يكون عن علم واجتهاد معتبر، لمظنة دليل أو قياس يحتمل أوجهاً من الأفهام والاستنباطات المتباينة المتغايرة، كاختلافات سلفنا الصالح مع بعضهم البعض، وهذا النوع من الاختلاف ينبغي أن يعذر بعضنا بعضاً فيه، مع المحافظة على النصح الجميل الواعي ما أمكن الذي لا يُؤدي إلى الشحناء والتباغض، ولو بقي كلّ طرف على رأيه المخالف للطرف الآخر..

فوحدة الأمة واجتماع كلمتها أصل من أصول الدين، لا يُفرط به إلا لأصل أعظم منه وأوكد، هذا ما يقتضيه قوله صلى الله عليه وسلم: (وأن لا نُنازع الأمرَ أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[1]. وقوله: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة)[2].

فلابد من أن نُنزل الأمور منازلها، ونُراعي قاعدة اعتبار الأولويات والأهم فالأهم وفق ضابط وميزان الشريعة، ونُعطي كلّ شيء حقه من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط.

خامساً
الشمولية

أعني بذلك أخذ الإسلام أخذاً شمولياً من دون تفريط في جانب من جوانبه، أو اهتمام بجانب دون آخر، مع الأخذ بالاعتبار مراعاة فقه الأولويات والموازنات، وما ينبغي أن يُقدم أو يؤخر بحسب ما تقتضيه المصالح الشرعية، وتقديم الأهم على المهم عند التزاحم في وقت واحد، من دون إستهانة بالمهم أو تفريط به.

---

(1) متفق عليه .
(2) رواه مسلم .

وهذا ما يقتضيه قوله تعالى: **{وما آتـاكم الرسـول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}**[3]. أي جميع ما آتـاكم به الرسول فخذوه، وجميع ما نهاكم عنه فانتهوا عنه، وليس بعضه دون بعض.

فنأخـذ الإسـلام أخـذاً شـمولياً؛ إسـلام العلـم والفقـه، إسلام الجهاد والاستشهاد، إسلام الأمـر بـالمعروف والنهـي عن المنكر، إسـلام الـدعوة والتبليـغ، إسـلام الزهـد وتربيـة الأنفس، إسلام التميز والصـبر والثبـات، إسـلام الاستسـلام والانقياد والاتباع..

وهذه خصـال جميعهـا تصـب فـي منهـاج عملـي واحـد مُتماسك مُتكامل، من دون تفريـق أو فصـل فيمـا بينهـا، أو تقليل لشيءٍ من أهميتها، وذلك كلّه يكون وِفق هدي وسـنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والذي دعاني للتنبيه على هذه النقطة الهامة، انشـغال كـثير مـن المسـلمين ببعـض الـدين دون البعـض الآخـر، وإهتمامهم بجانب من جوانب الدين دون الجوانب الأخـرى، وفي حال تذكيرهم بتلك الجوانب سـرعان مـا يُقللـون مـن أهميتهـا قياسـاً لمـا هـم عليـه مـن عمـلٍ، أو يُؤولونهـا ويصرفونها عن مدلولها الشرعي الصحيح!

<u>وسبب ذلك يعود في الغالب لأمرين:</u>

أولهمـا، وجـود المـدارس الفقهيـة، والجماعـات الإسلامية المعاصرة التي تقوم على تكريس مفهـوم فصـل الدين بعضه عن بعض، والعمل بعضه دون بعض عـن قصـدٍ أو غير قصـدٍ، ممـا يعكـس ذلـك سـلباً علـى فكـر وسـلوك المسلمين، وحياتهم العامة والخاصة.

فهناك مدرسة تهتم بجـانب "الـدعوة والتبليـغ"، وتُبـالغ بأهمية هذا المنهج مما يحدو بهـا إلـى إهمـال بقيـة جـوانب الـدين، وإذا مـا ذُكـر اتبـاع هـذه المدرسـة بهـذه الجـوانب سرعان ما يُقللون من أهميتها وكأنها ليست من الدين!

وهناك مدرسة تهتم بجانب "تزكية النفس" وتُبـالغ فـي أهمية هذا الجانب علـى حسـاب بقيـة جـوانب الـدين، ممـا يجعل أتباع هذه المدرسة يظنون أن الدين كلّـه يـدور حـول

---

[3] سورة الحشر : 7 .

هذا الجانب، فيقعون في التفريط - عن عمدٍ أو غير عمدٍ - ببقية جوانب الدين الأخرى!

وهناك مدرسة تهتم بالدعوة إلى العلم والانشغال به - تحقيقاً وتخريجاً - وتُبالغ في ذلك، حتى تجدها تقع في الترف العلمي النظري المجرد عن معايشة واقع الأمة ومشاكلها وآلامها، مما يجعل أتباع هذه المدرسة يقعون في المحظور المشار إليه، وهو الاهتمام ببعض الدين دون بعض!

وهناك مدرسة تقوم على مبدأ "الجهاد والقتال" والاهتمام به، وتُبالغ في ذلك مما يجعلها تقع في محظور التفريط في بقية جوانب الدين التي تُعتبر بحق من لوازم الجهاد وشروط نجاحه وقبوله!

وهناك مدرسة تقوم على التنظير السياسي، والاشتغال بالأخبار قراءةً وتحليلاً، بينما هم في المقابل تراهم يفقدون الرصيد العلمي الشرعي، الذي به تُعرف الأمور على حقيقتها!

وهناك من يُدندن حول العقيدة وأهميتها، وإذا نظرت ماذا يقصد من دندنته ودعوته لوجدته يقصد توحيداً دون توحيد، فهو إما يقصد توحيد الربوبية مُتجاهلاً توحيد الله في ألوهيته وأسمائه وصفاته، وإما يقصد توحيد الربوبية والألوهية معاً مُتجاهلاً توحيد الله في أسمائه وصفاته مُقللاً من أهمية هذا النوع من التوحيد، وإما أنه منشغل - بحكم التربية وكثافة المناهج التي يعكف على دراستها - بتوحيد الأسماء والصفات والرد على المعارضين والمخالفين من القدامى والمعاصرين، عن توحيد العبودية والألوهية مع ما يقتضي هذا النوع من التوحيد من اهتمام وتركيز!

وهو لو أراد أن يتكلم عن توحيد الألوهية والعبودية - بحكم الخلل في التلقي والدراسة الغير متوازنة - تراه يقصد جانباً دون جوانب، يقصد توحيد الله في العبادات الشعائرية، والاستغاثة والتوكل، مُتجاهلاً توحيده سبحانه وتعالى في الحُكم والتشريع، والطاعة والاتباع، والولاء والبراء، وهو كذلك لو أراد أن يُعري الشرك تراه يطنب في تعرية شرك القبور والبدع والشعوذة، بينما يتغاضى - رهبةً أو رغبةً أو جهلاً - عن شرك "القصور"، ونعني به شرك الحكم والتشريع، وشرك الطاعة والاتباع والانقياد، وشرك

الولاء والبراء، هـذا إذا لـم يكـن هـو نفسـه واقعـاً فـي هـذا الجانب من الشرك عن علمٍ أو غير علمٍ!

وهناك من تراه قـد جنـد نفسـه لمحاربـة البـدع، وفـي المقابل تراه يتعامى عن الشرك والكبائر!

وهناك من تراه يعمل على إحيـاء بعـض السـنن، وفـي المقابل تراه يتساهل بل ويُميت بعض الفرائض والواجبات!

وكم يحزنني انشغال بعض الإخوان - الزمـن الطويـل - مع أُناس حول مسائل تتعلق بالثوب والبنطال واللحيـة ومـا شابهها، بينما يكون هؤلاء النّـاس ممـن يُؤمنـون بالطـاغوت ويكفرون بالله عزّ وجل، ثم لا يسـمعون كلمـة واحـدة فـي ذلك؟!

وهذا كلّه يعود - في الغالب - إلـى الخلـل فـي التربيـة والتثقيف، وفي كيفية تلقي هذا الدين، والعمل له.

ورحم الله سيد قطب إذ يقول: بينما الطيبـون السـذج من المسلمين يروحون يشتغلون فـي سـذاجة بلهـاء - مـن تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق - بالتنبيه إلى مخالفـات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أدوا واجبهـم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة، بينما الدين كلّه يُسحقُ سحقاً ويُدمَّر من أساسه، وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصـبون، وبينما الطـاغوت - الـذي أمـروا أن يكفـروا بـه - هـو الـذي يحكم حياة النّاس جُملةً وتفصيلاً![1].

وقال: إن الأمـر أكـبر وأوسـع وأعمـق ممـا يُنفـق فيـه هؤلاء الطيبون جهدهم وطاقتهم واهتمامهم.. إنه فـي هـذه المرحلة ليس أمر تتبع الفرعيات مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله، فحدود الله تقوم ابتداءً على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه، فإذا لم يُصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة تتمثل في اعتبـار شـريعة اللـه هـي المصـدر الوحيـد للتشريع واعتبار ربوبية الله وقـوامته هـي المصـدر الوحيـد للسلطة، فكلّ جهد فـي الفـروع ضـائع، وكـلّ محاولـة فـي الفروع عبث، والمنكر الأكـبر أحـق بالجهـد والمحاولـة مـن سائر المنكرات[1].

---

[1] في ظلال القرآن : 2/1034 .
[1] في ظلال القرآن : 5/951 .

أما **السبب الثاني**: فهو يكمن في تلبيس إبليس على كثير من خواص المسلمين فضلاً عن عامتهم، حيث يصرفهم عن الأهم بالمهم، وعن الواجب إلى المندوب، وعن المندوب إلى المباح، ولو أفلح في صرفهم عن المباح إلى المحظور فلا يُقصر، وإن لم يُفلح فهو غالباً ما يُشغلهم في جزئية من جزئيات الدين إلى حد الإشباع والإطناب، وربما إلى حد الإفراط على حساب الأجزاء أو الشرائع الأخرى. مما يجعلهم يقعون في المحظور المشار إليه - عن قصدٍ أو غير قصدٍ - وهو العمل ببعض الدين دون بعض، والاهتمام بجوانب منه دون جوانب.

فمثلاً ترى أحدهم يُزيِّن الشيطان له الاهتمام بالشعر - وهو أمر مباح وأحياناً يُستحسن ويُندب له - إلى حد المبالغة، فيغوص في دراسته - قراءة وتحليلاً وحفظاً - الزمن الطويل، ولربما يقضي عمره كلّه وهو منشغلٌ بذلك عن التوحيد ومُتطلباته، وعن القرآن الكريم وتدبر آياته، وعن السنّة النبوية المشرفة وغيرها من العلوم الضرورية النافعة التي تعلو الشعر أهميةً ونفعاً، ولربما تراه مملوءاً جوفه شعراً بينما لا يحفظ بضع آيات من القرآن الكريم!

ومثل هذا لو أراد أن يعطي الآخرين شيئاً فهو يقئ ما في بطنه من قيح، فالإناء ينضح بما فيه، فيُؤذي نفسه وغيره.

وأذكر مرة أنني دخلت مكتبة، فوجدت رجلاً يتفاصح ويعلو صوته بين النّاس، فبادرني - على وجه المفاجأة والتنطع - بسؤال: هل تعرف القائل؟ وذكر شعراً!

فقلت له: هل تعرف معنى "لا إله إلا الله" التي بها تدخل الجنّة أو النار؟ فبُهت وسكت ولم يُجب!!

ومن ذلك كذلك أن يشتغل المرء في مسألة من المسائل الدينية مُضيعاً وقته وعمره فيها، وعلى حساب بقية مسائل الدين الأخرى، حتى أنه يُعرف بها وتُعرف به، وكم من داعية تراه يُدندن حول مسألة معينة أو شعار معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يُحمل إلى قبره، فيُفاجأ حينئذٍ بما قدم لنفسه.

قال ابن القيم رحمه الله: فمن النّاس من يتقيّد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو

مشيةٍ لا يمشي غيرها، أو بزيٍ وهيئةٍ لا يخرج عنهما، أو عبادةٍ معينة لا يتعبد بغيرها، وإنٍ كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره، وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه، فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل، فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة وتفريغ القلب وبعد العلم قاطعاً له عن الطريق، فإذا ذكر له الموالاة في الله والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدَّ ذلك فضولاً وشراً، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك أخرجوه من بينهم وعدوه غَيْراً عليهم، فهؤلاء أبعد النّاس عن الله..اهـ[2].

ومن نتائج العمل ببعض الدين وترك بعضه الآخر حصول الحالقة؛ العداوة والبغضاء، والتفرق والتنازع والاختلاف فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض. كما قال تعالى: **{ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة}**[3].

وهذا مثل ضرب للمسلمين، أي إنكم إذا فعلتم فعل النصارى، فنسيتم حظاً من الدين، وعملتم ببعضه وتركتم البعض الاخر، فإنه سيُصيبكم ما أصابهم من التفرق والتنازع والعداوة والبغضاء، وما أصاب المسلمين ويُصيبهم في هذه الأيام من تفرقٍ وتنازعٍ وضُعفٍ وعداوةٍ فيما بينهم ما هو إلا بسبب أنهم نسوا حظاً من الدين والتوحيد - بل حظوظاً - فعَملوا ببعضه ونسوا بعضه الآخر!

وإذا كان هذا جزاء من يُبعض الدين؛ فيعمل ببعضه وينسى بعضه الآخر، فإن مفهوم المخالفة وهو العمل بمجموع الدين - من دون تفريط بأي جزئية من جُزئياته - يقتضي الوحدة والائتلاف والرحمة والتكافل.

وإنَّ أيَّ مُحاولة تسعى للنهوض بالأمة وتوحيد كلمتها تتجاهل هذه النقطة الهامة يُعتبر سعيها كالركض وراء السراب..

---

(2) مدارج السالكين : 176 .
(3) سورة المائدة : 14 .

وبعـد... فهلاَّ أخـذنا الإسـلام أخـذاً شـمولياً مـن غيـر إنتقاص ولا افراطٍ أو تفريطٍ، ثم بعد ذلك سألنا الله الوحـدة والجماعة والنصر والتوفيق؟

سادساً

اعتماد الجهاد في سبيل الله للتمكين والتغيير، وإعلاء كلمة الله في الأرض

حيث لابد للعاملين للإسلام من سـبيل يُجمعـون عليـه ابتداءً، ينهجونه لنصرة هذا الدين وإعلاء كلمتـه فـي الأرض، فاختلاف وجهات النظر حول السبل والوسائل كان ولا يزال ذريعــة للتنــازع والتفــرق والاختلاف، وتعــدد الجماعــات المتنافرة..

والإسلام إذ حدد لنا الغايات وألزمنا بالعمـل لهـا كـذلك فقد حدد لنا السبل والوسائل التي تُوصلنا - بإذن الله - إلى تحقيق تلك الغايات، وألزمنا الأخذ بها، فالمسـألة لـم تـترك فراغـاً مـن غيـر بيـان مـن الشـارع الحكيـم ليجتهـد فيهـا المجتهدون، ويخوض فيها الخائضون كلٌّ بحسـب مـا يرتئـي ويهوى..

ونحـن إذ نقـرر أن الجهـاد فـي سـبيل اللـه هـو طريـق الإسلام للنصر والتمكين وإعلاء كلمة الله فـي الأرض، فهـو لأوجه نُجملها في النقاط التالية:

1) أنّ طريق الجهاد وحي قد أمرنا اللـه بـه، وهـو قـدر الأمة فلا مناص للتفلت منـه أو إسـتبداله بطـرقٍ أخـرى مـا أنزل الله بها من سلطان.

قال تعالى: **{كُتِبَ عليكمُ القتال وهـو كُـرهٌ لكـم وعسى أن تكرهـوا شـيئا وهـو خيـرٌ لكـم}**[1]. وهـو كقوله تعالى: **{كُتِبَ عليكم الصيام}**[2]، فكما أنَّ الأمـة كُتِب عليها الصـيام فقـد كُتـب عليهـا القتـال، فلا فـرق بيـن الآيتين من حيث دلالة المشروعية والوجوب..

وإن كنتَ تعجب فمِـن أولئـك الـذين يستشـهدون بآيـة الصيام علـى شـرعية ووجـوب الصـوم، ثـم إذا ذُكِّـروا بآيـة القتال تراهم يلوون أعناقهم ويتكلفون التأويل والتعطيل!!

---

[1] سورة البقرة : 216 .
[2] سورة البقرة : 183 .

وكـذلك قـوله تعـالى: **{وقـاتلوهم حـتى لا تكـون فتنة ويكون الدين كلّه لله}**[3].

وقال تعالى: **{فقاتل في سبيل الله لا تُكلـف إلا نفسـك وحـرض المـؤمنين عسـى أن يكـف بـأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً}**[4].

وقـال تعـالى: **{انفروا خفافـاً وثقـالاً وجاهـدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم}**[5].

وقال تعالى: **{وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضـعفين مـن الرجـال والنسـاء والولـدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظـالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً}**[6].

وغيرها كثير من الآيات التي تُدلِّل علـى أن الجهـاد فـي سبيل الله هو طريق الإسـلام إلـى النصـر والتمكيـن وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وفي الحديث فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**أمرت** أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ويُقيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكـاة فإذا فعلـوا ذلـك عصـموا منـي دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحـق الإسلام، وحسابهم على الله)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (بُعثت بيـن يـدي السـاعة بالسيف، حتى يُعبد الله تعـالى وحـده لا شـريك لـه، وجُعـل رزقي تحت ظل رُمحـي، وجُعـل الـذلّ والصـغار علـى مـن خالف أمري)[2].

وقال: (واعلموا أنّ الجنّة تحت ظِلال السيوف)[1].

وقال: (من مات ولم يغزُ ولـم يُحـدث بـه نفسـه مـات على شعبة من نِفاق)[3].

---

(3) سورة الأنفال : 39 .
(4) سورة النساء : 84 .
(5) سورة التوبة : 41 .
(6) سورة النساء : 75 .
(1) رواه البخاري .
(2) رواه أحمد وغيره، صحيح الجامع : 2831 .
(3) رواه مسلم .

وقال: (مَن لم يغزُ أو يُجهز غازياً، أو يخلُف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة)[4].

فالمؤمن ليس له إلا أن يكون واحداً من ثلاث، إما غازياً، أو يجهز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير، وإلا فلينتظر - عاجلاً أو آجلاً - قارعة تنزل بساحته لا يعلم ماهيتها وشدتها إلا الله تعالى. ومن يتأمل القوارع الشداد التي تنزل بالأمة في هذا الزمان يُدرك أن سبب ذلك كله يعود إلى تخليها عن الجهاد، وعن نُصرة المجاهدين.

2) أن الجهاد في سبيل الله دواء لكثير من الأدواء، فلا شيء أنفع للبلاد والعباد من الجهاد في سبيل الله تعالى.

فبه تتحقق الهداية وتُيسر لأصحابه، كما قال تعالى: **{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}**[5]. وعليه فكان السلف إذا أشكل عليهم أمرٌ من أمور الدين يسألون أهل الثغور والجهاد.

وهو باب من أبواب الجنّة يُذهب الله به الهمَّ والغمَّ، كما في الحديث: (عليكم بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهمَّ والغم)[6].

وبه تُحفظ مقاصد الدين، وتُصان الحُرمات، كما في قوله تعالى: **{وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنّساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً}**[7].

وقال تعالى: **{ومَن جاهد فإنما يُجاهد لنفسه إنَّ الله لغنيٌّ عن العالمين}**[8]. أي أن الخير العائد من الجهاد مردود على أنفسنا إن جاهدنا في سبيل الله، فالله تعالى غنيٌّ عنا وعن جهادنا.

---

(4) صحيح سنن أبي داود : 2185 .
(5) سورة العنكبوت : 69 .
(6) رواه الحاكم وغيره، السلسلة الصحيحة : 1941 .
(7) سورة النساء : 75 .
(8) سورة العنكبوت : 6 .

وهو كذلك باب عظيم من أبـواب التمحيـص يُعـرف بـه المؤمن الموحِّد من المنافق المتسلق الذي يحب أن يُحمـد بما لم يفعل، فالجهاد تُرجمان التوحيد..

قال تعـالى: **{أم حسبتم أن تـدخلوا الجنّـة ولمـا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}**[9].

وقال تعالى: **{والذين آمنـوا وهـاجروا وجاهـدوا في سـبيل اللـه والـذين أووا ونصـروا أولئـك هـم المؤمنون حقاً}**[1].

وقـال تعـالى: **{الذين آمنـوا وهـاجروا وجاهـدوا في سبيل الله بـأموالهم وأنفسـهم أعظـم درجـة عند الله}**[2].

وقال تعالى: **{إنما المؤمنون الـذين آمنـوا بـالله ورسـوله ثـم لـم يرتـابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}**[3]. فاعتبر جهادهم دليلاً على صدق إيمانهم.

وقـال تعـالى: **{إنما يسـتأذنك الـذين لا يُؤمنـون بـالله واليـوم الآخـر وارتـابت قلـوبهم فهـم فـي ريبهم يترددون ولو أرادوا الخروج لأعدوا لـه عـدة ولكن كره انبعاثهم وقيل اقعدوا مع القاعدين}**[4]. فاعتبر سبحانه وتعالى تخلفهم عن الجهاد مـع رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم دليلاً على نِفاقهم وعدم إيمانهم، كما اعتبر عدم الإعداد والأخذ بالأسباب دليلاً على عدم رغبتهـم في الخـروج للجهـاد فـي سـبيل اللـه، فلكـلّ دعـوةٍ وزعـمٍ برهانٌ ودليلٌ، وزعم اللسان وحده لا يكفي.

قال ابن تيمية رحمه الله في تفسير الآيـة: فهـذا إخبـار من الله بأن المؤمن لا يسـتأذن الرسـول فـي تـرك الجهـاد وإنما يسـتأذنه الـذين لا يُؤمنـون، فكيـف بالتـارك مـن غيـر استئذان؟![5].

---

(9) سورة آل عمران : 142 .
(1) سورة الأنفال : 74 .
(2) سورة التوبة : 20 .
(3) سورة الحجرات : 15 .
(4) سورة التوبة : 45ـ 46 .
(5) مجموع الفتاوى : 28/438 .

قلت: فكيف بمن يثبط الأمة عن الجهاد، ويؤثم المجاهدين لجهادهم؟!

والجهاد إلى جانب ما تقدم لا يعدله شيء من العبادات، كما في الصحيحين، عن أبي هريرة قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد؟ قال: (لا تستطيعونه) فأعادوا عليه مرتين وثلاثاً كلّ ذلك يقول: (لا تستطيعونه) ثم قال: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد).

وقال صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل)[6].

وقال صلى الله عليه وسلم: (الغدوة والروحة في سبيل الله، أفضل من الدنيا وما فيها)[7].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من اغبرت قدماه في سبيل الله، فهو حرامٌ على النّار)[8].

قلت: فما بالك فيمن يغبر وجهه في سبيل الله، ويلامس غبار الجهاد شغاف قلبه؟

وإذا كان هذا الخبر كلّه يتحقق من جراء الجهاد في سبيل الله تعالى، فإن تركه والركون إلى الدنيا وإغراءاتها مآله إلى العذاب والذل والهوان، وضياع حرمات البلاد والعباد..

قال تعالى: **{إلا تنفروا يُعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كلّ شيء قدير}**[9].

وقال تعالى: **{قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في**

---

(6) صحيح سنن النسائي : 2971 .
(7) متفق عليه .
(8) صحيح سنن النسائي : 2919 .
(9) سورة التوبة : 39 .

سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين}[10].

وفي هذه الآية دلالات عظيمة منها:

أن الله تعالى لم يقل إن كان آباؤكم أو أبناؤكم أو إخوانكم.. وإنما عطف بين الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن بحذف الألف الذي يُفيد التفرد في الإختيار والمفاضلة في هذا الموقع، لندرك أنه لو حصلت المفاضلة والاختيار بين مجموع هذه الأشياء - وليس واحدة منها فقط - وبين الله ورسوله وجهاد في سبيله، لوجب على المؤمن أن يختار الله ورسوله والجهاد في سبيله.

ومنها؛ أن الولاية لا تتحقق إلا بالمتابعة والجهاد في سبيل الله، قال ابن تيمية: قد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول والجهاد في سبيل الله؛ وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، وفي دفع ما يُبغضه من الكفر والفسوق والعصيان.[1].

ومنها؛ أن إيثار الأصناف الواردة في الآية - وما أعزها على النفس - على الجهاد في سبيل الله، مآله إلى العذاب والفسق والضلال، وضياع جميع المصالح.

وفي الحديث فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا تبايعتم بالعينة[2]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلاًّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (يُوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،

---

[10] سورة التوبة : 24 .
[1] كتاب العبودية .
[2] العينة نوع من التعامل الربوي، وصفته أن يبيع المرءُ شيئاً من غيره بثمن مؤجل ويُسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه بثمن أقل من ذلك القدر، يدفعه نقداً.
[3] السلسلة الصحيحة : 11 .

وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن، فقال: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت).

ومهما كان للجهاد من تبعات وتكاليف، فإن تبعات وتكاليف ترك الجهاد في سبيل الله والركون إلى الدنيا ومشاغلها وملذاتها لهي أشد بكثير من تبعات الجهاد في سبيل الله، وهذا أمر - شهدت عليه الأدلة النقلية والعقلية - لا يُدركه إلا المؤمن العاقل المتبصر[4].

3) إن عدم الاتفاق على مبدأ الجهاد كسبيل للتمكين وإعلاء كلمة الله في الأرض، يستلزم بالضرورة تسليم الأعناق وجميع الحرمات إلى رحمة وسيوف الكفار الذين لا يرقبون في المؤمنين إلاً ولا ذمة.

قال تعالى: **{كيف إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة}**[5]. أي لا يُراعون فيكم قرابة ورحم، ولا عهداً قطعوه لكم.

وهم لا يزالون يُقاتلون المسلمين حتى يفتنونهم عن دينهم إن استطاعوا، كما قال تعالى: **{ولا يزالون يُقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}**[6]. وقال تعالى: **{ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}**[7].

فلو سالمتهم يا مسلم فهم لا يُسالمونك إلا بشرط التخلي عن دينك، وكم هي الأحداث - في الماضي والحاضر - التي تؤكد على صحة ذلك، وما يجري اليوم لمسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من البلدان لأكبر شاهد على ما نقول.

ولن أنسى تلك المرأة من مسلمات البوسنة - وقد رُوعت بقتل زوجها وأطفالها - وهي تقول: ظللنا نتكلم أن الإسلام دين سلام.. دين سلام.. حتى ذبحونا من الوريد إلى الوريد!!

---

(4) جاءت إحصائيات الهيئات الرسمية أن عدد المسلمات في البوسنة اللواتي انتهكت أعراضهن واغتصبن من قِبل كفار الصرب ما يزيد عن ستين ألف إمرأة وفتاة، هذا المعلن والمخفي أعظم وما يُمارسه جنود الأمم المتحدة على الإسلام من انتهاكات للحرمات ومحاولات للإبتزاز ما هو معروف لدى الجميع..

(5) سورة التوبة : 8 .

(6) سورة البقرة : 217 .

(7) سورة البقرة : 120 .

فهل نعتبر أم ننتظر مزيداً من الانتهاكات لحرمات وأعراض المسلمين؟!

4) الجهاد في سبيل الله طريق الطائفة الناجية المرضية المنصورة، حيث يُعتبر من أخص خصائصهم ومن أبرز ما يتميزون به عن غيرهم..

قال تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يُحبهم ويُحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله واسع عليم}**[1]. فالجهاد في سبيل الله مِنة وفضل وتوفيق يتفضل الله به على من يشاء من عباده.

وفي الحديث فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لن يبرح هذا الدين قائماً يُقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفةٌ من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم حتى يُقاتل آخرُهم المسيح الدجال)[3].

وعن سلمة بن نفيل الكندي، قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل: يا رسول الله، أذال النّاس الخيل[4] ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: (كذبوا، الآن، الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يُقاتلون على الحق ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتيَ وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[5].

---

(1) سورة المائدة : 53 .
(2) رواه مسلم .
(3) صحيح سنن أبي داود : 2170 .
(4) أي استخفوا بها وتركوها .
(5) صحيح سنن النسائي : 3333 .

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)[6].

وبعد...

فهذا هو طريق الطائفة المنصورة الناجية المرضية، فهل يحسن بنا - ونحن ننشد الحق - أن نتنكب طريقهم ونلتمس طرقاً أخرى ما أنزل الله بها من سلطان؟!

لأجل هذه الأوجه مجتمعة - وواحد منها يكفي - نُقرر أن الجهاد هو الطريق الوحيد للنصر والتمكين وإعلاء كلمة الله في الأرض، وهو السبيل الذي يجب على الأمة أن تجتمع وتتفق عليه.

وبالتالي فإن السبل الأخرى - المطروحة على الساحة - أكثرها غير شرعية فضلاً عن أن تحقق غاية ونصراً للإسلام والمسلمين، وبخاصة السبل التي يكون من منهاجها السير في اللعبة الديمقراطية والمشاركة في المجالس النيابية والشعبية، التي تفضي بأصحابها إلى مُسالمة ومُعايشة طواغيت الكفر والظلم على كفرهم وظلمهم..

فهذه سبل باطلة غير شرعية - يترتب عليها مزالق شرعية وعقدية لا تُحمد عُقباها - لا يجوز للمسلمين أن يسلكوها وينشدوا النصر والتمكين من خلالها، والمسألة قد أفردنا لها كتاباً مستقلاً لمن يُريد التفصيل أو الدليل[7].

أما الطرق الثانية التي تتبناها بعض المدارس الإسلامية المعاصرة، كطريق التربية أو التصفية والتربية، وطريق طلب العلم، وطريق الاهتمام بالسياسة وفقه الواقع والفِرَق وغيرها من الطرق، نقول فيها: هذه الطرق جميعها تصب في خانة الإعداد الشرعي الذي يُعتبر من لوازم الجهاد في سبيل الله، فالتصفية والتربية هي من الإعداد اللازم ولكن لا يجوز أن نعتبرها سبيلاً للتغيير والنصر والتمكين في الأرض.

---

(6) صحيح سنن ابن ماجة : 6 .
(7) حكم الإسلام في الديمقراطية والتعددية الحزبية، وهو كتاب مطبوع .

وكذلك طلب العلم والطرق الأخرى فهي من الإعداد اللازم، ولكن لا يجوز اعتبارها سبيلاً للتغيير والتمكين، وقِيام خلافة راشدة.

ولا أدل على ذلك من جيل الصحابة الأول، الجيل الأول في تربيته وزهده، وعلمه وفقهه، الأول في دِرايته للواقع وما يدور حولهم.. ومع ذلك لم يكن يُغنيهم عن الجهاد في سبيل الله، أو يُبرر لهم التخلف عن الغزو في سبيل الله وخوض غماره.

بل من هو أسمى وأفضل من الصحابة أجمعين، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ما أوتيه من خير وفضل، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. كلّ ذلك لم يكن مُبرراً له صلى الله عليه وسلم للقعود عن الجهاد في سبيل الله، بل كان أول الأوائل في الجهاد، يحتمي به الأبطال الصناديد إذا ما حميَ الوطيس، وقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لولا أن يُشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لأَنْ أُقتل في سبيل الله، أحبُّ إليَّ من أن يكون لي أهلُ الوبَرِ والمدَرِ)[2].

فأين مسلمي اليوم من هذه المعنويات العالية والحب العظيم للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، بل من يُلحظ عنده أدنى حماس للجهاد في سبيل الله سُرعان ما يُنظر إليه نظرة ازدراء واستهجان وتهكم، وعلى أنه من المتهورين وممن يلقون بأنفسهم في التهلكة!!

ثم أين طُلاب السنّة وحُراسها من ذلك، حيث نرى كثيراً منهم يتحرون دقائق السنّة في صغائر الأمور - وهذا حق - ثم هم في المقابل يتغافلون - رهبةً أو رغبةً - عن سنّة بل فريضة الجهاد في سبيل الله التي تكاد أن تكون غائبة وكأنها ليست من الدين، إلى درجة أنهم لا يُحدثون أنفسهم ولا الآخرين بها!!

---

(1) رواه مسلم .
(2) صحيح سنن النسائي : 2955 .

تنبيهات ضرورية:

حتى لا يُفهم كلامنا خطأ ويُحمل على غير الـوجه الـذي نُريد نُسجل التنبيهات التالية:

التنبيه الأول:

مما يدخل في مسمى الجهـاد فـي سـبيل اللـه الجهـاد بالمال والبيان، فربَّ كلمـة حـق ينطـق بهـا المـؤمن - فـي أجواء الجور والنفاق - عند سلطان جائر كافر تعـدل ضـرب السيوف وتزيد، كما في الحديث: (سيد الشهداء حمـزة بـن عبـد المطلـب، ورجـلٌ قـام إلـى إمـامٍ جـائرٍ فـأمره ونهـاه فقتله)[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ المـؤمن يُجاهـد بسيفه ولسانه)[4].

ولكــن أفضــل الجهــاد والمجاهــدين كمــا قــال ســيد المجاهدين صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد مَـن عُقِـرَ جواده وأهريق دمه)[5].

وقيل يا رسول الله أي النّـاس أفضـل، فقـال: (مـؤمنٌ يُجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)[6].

التنبيه الثاني:

قولنا بـأن الجهـاد فـي سـبيل اللـه هـو السـبيل للنصـر والتمكين والاستخلاف، لا يستلزم منه ولا يُفهم إهمال بقيــة الوســائل الشــرعية الأخــرى كالــدعوة والتبليــغ، والتربيــة والتزكية، وطلب العلم تعلماً وتعليماً، وبناء شريحة عريضـة من النّاس تُطالب بوعي وعلم بالإسلام.. فهذه مـن الأمـور الضرورية التي تدخل في مسـمى الإعـداد بمفهـومه العـام الذي يعتبر من المقدمات الضرورية للجهاد في سبيل الله.

لكن أخص ما يدخل في مسمى الإعداد الإعداد المادي الذي يرهب العدو الكافر، كما قال تعالى: **{وأعـدوا لهـم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون بـه عدو الله وعدوكم}** [الأنفال: 60].

---

(3) رواه الحاكم، السلسلة الصحيحة : 374 .
(4) رواه أحمد وغيره، صحيح الجامع : 1934 .
(5) السلسلة الصحيحة .
(6) رواه البخاري .

وفي صحيح مسلم، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ألا إن القوة الرمي، ألا أنَّ القوة الرمي، ألا أنَّ القوة الرمي).

وقال صلى الله عليه وسلم: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى)[1].

التنبيه الثالث:

قولنا بالجهاد في سبيل الله.. لا ينبغي أن يُفهم منه الفوضى والتصرف الفردي غير المسؤول، أو استعجال القتال قبل مقدماته الضرورية، فمن تعجل شيئاً قبل أوانه عُوقب بحرمانه.

التنبيه الرابع:

الجهاد في سبيل الله كبقية العبادات يشترط له الاستطاعة، فإذا انتفت الاستطاعة وتحقق العجز رُفع التكليف؛ لأن الله تعالى لا يُكلف نفساً إلا وسعها.

لكن هذا العجز لا ينبغي أن يُقعد المؤمن عن الإعداد للجهاد قدر استطاعته، فالمؤمن إما أنه يُجاهد في سبيل الله، أو يعد عدته، فالميسور لا يسقط بالمعسور.

قال ابن تيمية: يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2].

التنبيه الخامس:

شُرع الجهاد في سبيل الله لدفع المفاسد وجلب المصالح - وأعظم المفاسد الشرك، وأنفع المصالح وأفضلها التوحيد - ومتى يكون الأمر على خلاف ذلك لا يشرع الجهاد، وهو كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يجب تقدير المصالح والمفاسد - وِفق ميزان الشرع - عند الإقدام أوالإحجام.

التنبيه السادس:

---

(1) رواه مسلم .
(2) مجموع الفتاوى : 28/259 .

فشل المجاهدين في موقعة من المواقع أو مرحلة من المراحل لأسباب قد تكون من عند أنفسهم، لا يستلزم اعتبار طريق الجهاد في سبيل الله فاشلاً كما لا يستلزم استعداء الجهاد والمجاهدين كما وقع في ذلك بعض الدعاة المعاصرين، وتذرعوا بواقع بعض الحركات الجهادية في زماننا المعاصر!!

أقول: هذا تجنٍّ وظلم ومُجاوزة للحق والإنصاف، فخطأ خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما قتل أولئك الذين قالوا له صبأنا، وكانوا يُريدون أن يقولوا أسلمنا فأخطأوا التعبير، لم يستدعِ النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يتبرأ من الجهاد في سبيل الله، ومن خالد ومَن معه، وإنما تبرأ من صنيع خالد الذي أخطأ فيه تحديداً ولم يتجاوزه، وقال: اللهم إني أبرؤ إليك مما صنع خالد ثلاثاً. والشواهد من السيرة النبوية كثيرة التي تُدلل على مثل هذا الفقه والإنصاف، ونحن لنا في رسول الله أسوة حسنة.

وفي الختام

أعود وأُذكِّر أن هذه النقاط الست الآنفة الذكر لابد من مُراعاتها والأخذ بها عند القيام بأي عمل جادٍ يستهدف جمع الطاقات وتوحيد كلمة المسلمين، وإلا فإنَّ دعوة توحيد الكلمة والجهود ستبقى زعماً تلوكها الألسن لا واقع ولا أثر لها في حياة الأمة والمسلمين.

أسأل الله تعالى أن يُلهمنا رشدنا، والإخلاص في القول والعمل، وأن يُوحِّد كلمة المسلمين على ما يُحبه ويرضاه، فالأمر له من قبل ومن بعد، إنه تعالى سميع قريب مجيب.

وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

عبد المنعم
مصطفى حليمة
أبو بصير

تم تنـزيل هذه المادة من
منبر التوحيد والجهاد

w.dehwat.www//:ptth
dqamla.www//:ptth
nnusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth